المحاضرة الأولى:

الحضارة الإسلامية: تعريفها ،جغرافيتها ، حواضرها ، ومصادرها

تعريفها:

تتشكل الحضارة في عملية تفاعل بين الإنسان والبيئة التي يعيش فيها ، وتتجلى بدراسة مظاهرها المظهر الاقتصادي الاجتماعي والسياسي والفكري والديني، فتاريخ الحضارة هو تاريخ صراع الإنسان مع الطبيعة وتفاعله معها فالحضارة وليدة الإنسان والطبيعة معا ، ورغم أنها قامت وتقوم في بيئات بشرية وجغرافية تختلف في مظاهرها فإن هناك بعض الشروط التي تساعد على نمو الحضارة أو تأخر تقدمها كالشروط الجغرافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية وغيرها ، والحضارة ليست من صنع الفرد وإنما تصنعها المجتمعات البشرية بتظافر جهودها وتراكم إنتاجها ومخلفاتها وتفاعلها مع البيئة التي هي أساس لنشوء الحضارة وتطورها ، وهي وليدة اتصال وتمازج شعوب متعددة ويظهر ذلك كلما تطورت الشعوب ووسائل الاتصال.

لقد أخذت الحضارة العربية من الحضارات السابقة التي سادت في أجزاء المنطقة قبل الإسلام ومزجتها حتى وصلت مرحلة الابتكار والإبداع وبالتالي الارتقاء على مسرح التطور الذي وصل إلى أوجه في القران الرابع الهجري وسادت لعدة قرون وغلبت عليها روح المحافظة والتقليد.

جغرافيتها:

تطورت الحضارة العربية الإسلامية خلال العصور التي درج المؤرخين الأوروبيين على تسميتها بالعصور الوسطى ، فقد شهد القرن الأول الهجري / السابع الميلادي تكوين الدولة العربية الإسلامية ووصولها إلى أقصى حدود اتساعها حيث كان أولها انتصار الدعوة الإسلامية وسيادته على الجزيرة العربية ثم تلتها موجة الفتح الأولي في عصر الخلفاء الراشدين التي أدت إلى ضم كل من بلاد العراق وإيران في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة وسوريا ومصر في الشمال والجنوب الغربي منها ، وتلتها مرحلة حكم بني أمية عندما ساد الفتح على كل ما يسمى الوطن العربي في هذا العصر ، يضاف إليه شرقا منطقة الممتدة من إيران إلى تركستان الروسية وحتى حدود الصين في الشمال الشرقي ووادي البنجاب في الهند من جهة الجنوب الشرقي ، أما في الغرب فقد انضوي تحت لواء الدولةالعربية الإسلامية كل من شمال إفريقيا واسبانيا.

يمكن تصنيف البلدان التي سادته الحضارة العربية الإسلامية إلى منطقتين ؛ الوطن العربي الحالي وتتكون من بيئة تكاد تكون واحد ويعمرها أناس متقاربين أو متماثلين من ناحية الأصول وتقاربهم في اللغات بحيث تكون أسرة لغوية متمايزة عن مجموعات اللغات الأخرى ، أما المنطقة الثانية فهي كل ما دخل في سيادة الدولة الإسلامية ، وانفصل عنها فيما بعد سياسيا وحضاريا وثقافيا ، وخاصة في ميدان اللغة ضمن إطار هذا التصنيف كانت أرضالدولة الإسلامية مكونة من بلاد متمايزة في مجالات متعددة، كالخليط البشري والموارد الاقتصادية الناجمة في الأغلب عن الشروط الطبيعية وهذه البلاد هي: شبه جزيرة العرب، العراق، بلاد الشام ، مصر، بلاد فارس ، بلاد المغرب العربي والأندلس.

فيما يخص شبه الجزيرة العربية فعلى أرضها أشرق الإسلام وقامت دعوته وتأسست دولته ومنها خرج الفاتحون لتبليغ دعوته لكن الفتوحات لم تلبث أن أفقرتها بشريا واقتصاديا وبالتالي سياسيا ، فقد غادرته أثر الفتوحات عناصر من سكانه لتشارك في الفتح أولا ومن ثم لتقيم في الأراضي المفتوحة في طول المنطقة وعرضها اعتبارا من خراسان في شمال إيران إلى الأندلس غربا ، وفقدت شبه الجزيرة العربية دورها التجاري القديم كصلة وصل بين عالم الشرق الأقصى والمتوسط عبر الطريق الذي يبدأ من جنوبها ويعبر منطقتها الغربية برا إلى الشام ومصر ، والذي كان أساس ازدهار اليمن وسمو مكانة مكة ، وهكذا يبرز الدور الاقتصادي للجزيرة متمثلا في منطقته الغربية ذات صلة الوصل بين عالم الحضارة العربية الإسلامية وشواطئ افريقيا الشرقية.

أما العراق فيحيط بشبه الجزيرة العربية وتتكون من سلسلة من الهضاب الخصبة إلى السهول الجافة التي تتجه من شمال جبال طوروس و زاغروس شرقا نحو البحر المتوسط ، ومع ذلك فإنها تتألف بدورها من مناطق ذات خصائص مميزة فهناك ما بين دجلة والفرات أقيمت منذ العهد الساساني مشاريع ري هائلة وخاصة في الجنوب الشرقي من المنطقة أي في منطقة عربستان التي تضم حوض قارون والكرخة وأصبحت مخزن للسكر في العصور الإسلامية ، ويتم الانتقال من العراق إلى بلاد الشام عبر سهل واسع ابتداء من منعطف الفرات حتى الشرق ويكون في شماله سهلا مناسبا للرعي ولكنه ببادية الشام ولكن هذه المنطقة تبدو عقدة مواصلات حيث إليها الطريق البحري من الشرق الأقصى الذي يحط في البصرة ثم يحاذي الفرات كما ينتهي الطريق البري القادم من الصين.

وأما بلاد الشام فتكمن أهميته المائية بسهول حوض العاصي وغوطة دمشق والأغوار في الأردن والبقاع إضافة للسهول الساحلية لكن شهرتها تتميز بالبستنة والغابات في الجبال، من الناحية السكانية فإن سكان الشام ومابين

النهرين امتداد لسكان شبه الجزيرة العربية والصلة بينهما قائمة منذ أقدم العصور حيث سجل ما سمي بالهجراتالسامية من أموية وكنعانية وآرامية ، وظل الاتصال قائما بين المنطقتين حتى قبيل الفتح الإسلامي.

وفيما يتعلق بمصر فمعظم أراضي مصر الزراعية تتكون من شريط ضيق حول نهر النيل من الجنوب إلى الشمال ، ولعنصر الطبيعة في مصر أثر آخر ينبع من موقعها إذ هي برزخ بين بحرين المتوسط والأحمر وبالتالي ظلت صلة الوصل في التجارة بين عالمي هذين البحرين ، وصارت مركزا بحريا على صعيدي الحرب والسلم.

أما بلاد فارس (إيران) فتحيط بها الجبال من الشمال والغرب كما تعلو وسطها وتجعلها مكونة من منطقتين كلاهما صحاري وسهول جافة باستثناء بعض الواحات التي تأتيها من الجبال فتتكون مدن تحيط بها أرض مزروعة، وهذا الوضع هو الذي يفسر شهرة الإيرانيين في طريقة خاصة تتمثل في إقامة سلسلة قنوات تمر بها تحت الأرض لاستخدامها في الري . وهناك طرق تواصل عديدة من بين الشمال والشرق والجنوب وحتى وراء إيران إلى الشمال الشرقي سيطر المسلمون على إقليم ما وراء النهر وخلفها كان ينتشر النفوذ الصيني حيث اصطدم العرب به خلال العصر الأموي واستطاعوا الانتصار عليه.

أما بلاد المغرب الإسلامي والأندلس فالمعروف أنّ المغرب منطقة ممتدة من الصحراء الليبية شرقا إلى الأطلسي غربا ومن المتوسط شمالا إلى الصحراء الكبرى جنوبا، وتتشكل أرض المغرب من أشرطة طولانية تمتد من الشرق إلى الغرب أولها من جهة البحر جبال أطلس التل ويليها نحو الداخل منطقة الهضاب العليا وهذا الشكل يفسر لنا الصعوبة التي واجهت مهاجمي بلاد المغارب من الشمال كالرومان وسهولة توغل القادمين من الغرب كالوندال أو من الشرق كالعرب، تظهر هذه التضاريس بوضوح في الوسط (منطقة الجزائر الحالية) لكن الاستثناء يبدو في الأطراف حيث تبتعد الجبال عن البحر مفسحة المجال لانفتاح السهول ، كما أن خط الساحل في الطرفين يقترب من الجزر الأوروبية الغربية واسبانيا؛ فكانت هضبة تنحدر نحو الغرب بشكل عام ولذلك جرت أعظم وديانها نحو الغرب أو الأطلسي، وعاش فيها الأيبيريون القدماء وسيطر عليها الرومان ثم الوندال ثم القوط ثم فتحها المسلمون عام 92 هـ (711 م). حيث كان لبعد الأندلس عن مركز الدولة الإسلامية أول الأقاليم انفصالا عن جسمها حيث استمرت فيها الدولة الأموية.

مصادرها:

لم تنشأ الحضارة العربية الإسلامية من العدم ولم تكن جزيرة منعزلة عن العالم ، وإنما استمدت معارفها من مصادر متعددة يأتي على رأسها القرآن والسنة النبوية الشريفة ، إذ هما المصدر الأول للتشريع والمصدر الأساسي للإخبار بالغيبيات التي يجب على المسلمين الإيمان بها ولكن المعرفة الإسلامية لم تتوقف عند الكتاب والسنة وإنما امتدت لتشمل الديانات السابقة ، فيما يتعلق بالعقائد لأن المسلمين يؤمنون بكل الديانات السماوية التي سبقتالإسلام، ويعتبرون الدين واحدا وإنما أنزل على الرسل بتدرج ولم يكتمل إلا مع خاتم الأنبياء محمد –صلى الله عليه وسلم – ولذلك استفاد المسلمون من اليهودية ، كما استفادوا من المسيحية ، وتأثروا بهما في بعض المسائل التاريخية والعقدية ، وكما استفادت من الديانات السماوية استفادت من حضارات وثقافات الأمم الأخرى وتأثرت بما أنتجته تلك الثقافات والفلسفات التي سبقت الإسلام ، وخاصة الثقافة الفارسية والثقافة اليونانية.

المصادر الفارسية الهندية :

المصادر الفارسية : المعروف أن الفتوحات الإسلامية قد شملت كل أقاليم الدولة الفارسية ، التي فقدت سيادتها وتحولت إلى مجرد ولاية من ولايات الدولة الإسلامية ، وقد أدت عملية الفتح إلى دخول عدد كبير من الفرس في الإسلام ، واختلاطهم مع العرب ، ويظهر تأثير الثقافة الفارسية في الثقافة العربية الإسلامية في الميادين السياسية وفي العديد من مظاهر الحياة الاجتماعية وقد يظهر في بعض المسائل الاعتقادية أحيانا.

وقد تجسد التأثير السياسي في نمط الحكم الذي كان خلافة ثم تحول إلى ملك . ولم يأخذ العرب عن الفرس قوانين الملك فقط وإنما تأثر بعضهم بعقيدة الفرس فيما تعلق بعلاقة الملك بالرعية ، حيث كان الملك عندهم مقدسا تجب له الطاعة المطلقة.

ولم يتوقف التأثير الفارسي عند الحياة السياسية وإنما تجاوزها ليؤثر في الحياة الأدبية والثقافية بصفة عامة حيث أصبح عدد من أبناء الفرس شعراء وكتابا نقلو من شعرهم بعض الأخيلة الفارسية وبقايا معتقداتهم القديمة ، كما ظهر التأثير في المجال اللغوي حيث استمد العرب العديد من المنتجات الحضارية التي لم يكونوا يعرفونها قبل أن

يختلطوا بالفرس ومنها على سبيل المثال: الكوز والجرة والإبريق والكعك ، والفلفل والقرفة والنرجس والعنبر والكافور والجوز واللوز والدولاب والميزان والزئبق وغيرها.

كما تأثر العرب بالفرس في الموسيقى والغناء الفارسي فأخذوا الكثير من الألحان والنغمات الفارسية ووقعوا عليها أشعارهم، وهكذا نرى أن الثقافة الفارسية قد تغلغلت في جميع مناحي الحياة العربية الإسلامية، وبذلك كانت من أهم مصادر الحضارة الإسلامية.

الثقافة الهندية : انتقلت بعض عناصر الثقافة الهندية إلى الثقافة العربية الإسلامية من خلال حركة الترجمة التي نشطت في العصر العباسي ، وعلى الرغم من أن الهند لم تكن من أوائل البلاد المفتوحة كفارس ورغم أن الهنود لم يمتزجوا بالمجتمع العربي كما امتزج به الفرس إلا أن تأثيرهم في مسار الحضارة العربية الإسلامية واضح في العديد من المجالات العلمية والأدبية والدينية وقد وقع هذا التأثير عبر قناتين مباشرة وغير مباشرة، أما غير المباشرة وهي الأولى فقد كان تأثيرها واضحا قبل الفتح الإسلامي لبعض أقاليم الهند وكان عبر الثقافة الفارسية التي تأثرت بالثقافة الهندية ونقلت إلى العربية ضمن ما نقل عن الفارسية مثل قصص كليلة ودمنة وقصص السندباد وبعض قصصألف ليلة وليلة.

أما التأثيرات المباشرة فقد وقعت من خلال الاحتكاك المباشر للعرب ببعض الهنود الذين انخرطوا في حياة المجتمع الإسلامي ومن أشهرها تأثير الطب الهندي والفلك الهندي، ولم يتوقف تأثير العناصر الهندية عند الأدب واللغةوالبلاغة والفلك والطب والرياضيات وإنما تجاوزه إلى التأثير في العقائد أو الأفكار أيضا.

المصادر اليونانية : إذا كان التأثير الفارسي أكثر وضوحا وعمقا في المراحل الأولى لانطلاق الحضارة العربية الإسلامية بسبب اندماج المجتمع الفارسي كله تقريبا في المجتمع العربي وبسبب المشاركة الكثيفة للعنصر الفارسيفإن تأخر تأثير الحضارة اليونانية من حيث هي مصدر من مصادر المعرفة الإسلامية لا يقلل من مكانتها ولا ينقص من إسهامها في بناء المعرفة الإسلامية لأن الفتح وإن كان لم يشمل كل الإمبراطورية البيزنطية آنذاك فإنه قد شمل عددا كبيرا من أقاليمها مثل الشام ومصر وشمال افريقيا وقد كانت الشام تعج بالمذاهب الدينية والفلسفية وكانت الإسكندرية من أهم المراكز الفكرية في ذلك العصر.

ويمكن أن نلاحظ أن التأثير اليوناني في الحضارة العربية الإسلامية قد تم على مرحلتين مرحلة ما قبل الترجمة ومرحلة ما بعد الترجمة ؛ فالمرحلة الأولى تجسدت فيما يمكن تسميته بتأثير الحضارة الهيلينية بصفة عامة على منطقة الشرق

والغرب التي شملتها فتوحات الإسكندر الأكبر والتي انطلقت من مقدونيا بأوروبا لتشمل مصر وليبيافي افريقيا والشام والعراق وفارس وامتدت لتشمل تركستان و أفغانستان و قسما بلاد الهند في آسيا.

ولكن التأثير الأكبر للثقافة اليونانية هو ذلك التأثير المباشر الذي وقع في المرحلة الثانية ، وقد كان من خلال المراكز الثقافية الكبرى لإشعاع الحضارة اليونانية في المشرق وشمال إفريقيا وهي جند ساور وحران والإسكندرية التي فتحها المسلمون وهي تعج بالأفكار والمذاهب الدّينية والفلسفية وشرعوا في الاستفادة من ذخائرها بنسب متصاعدة مع الزمن.

لقد مرت الترجمة من الثقافات الأخرى إلى الثقافة العربية بثلاث مراحل كبرى؛ المرحلة الأولى تبدأ من عهد المنصور وتنتهي مع نهاية عهد الرشيد (136-193هـ) ومن أشهر الكتب التي ترجمت كليلة ودمنة عن الفارسية والسند هند عن الهندية، وغيرها..

المرحلة الثانية: تبدأ بداية منعهد المأمون سنة 198 هـ وتنتهي سنة 300 أشهر المترجمين في هذه المرحلة يوحنا أويحي البطريق، الذي كانت الفلسفة أغلب عليه من الطب ، حيث ترجم الكثير من كتب أرسطو ومنهم الحجاج بن يوسف بن مطر الوراق الكوفي وقسطا ابن لوقا البعلبكي وحنين بن إسحاق وابنه إسحاق بنحنين وقد عني يكتب الفلسفة عناية أبية بكتب الطب وفي هذه المرحلة ترجمت عدة كتب يونانية ، أما المرحلة الثالثة : فقد كانت في معظمها تكملة للمرحلة الثانية وفيها ترجمت أو أعيد ترجمة بعض كتب أرسطو في المنطق والطبيعة ، ومن أشهر مترجمي هذه المرحلة متى بن يونس الذي كان ببغداد سنة 320 هـ وسنان بن ثابت بن قرة الذي توفي 360هـ وغيرهما.

والملاحظ أن أغلب ما ترجم في المرحلة الأولى إنما كان من السريانية أو الفارسية إلى العربية فإن ما ترجم أو أعيد ترجمته في المرحلتين الثانية والثالثة كان أغلبه عن اليونانية مباشرة ولكن التراجمة كانوا في معظمهم من غير المسلمين في المراحل الثلاثة ولا شك شأن ترك أثره في الثقافة العربية الإسلامية التي ستتأثر بمذاهب ومعتقدات المترجمين أحيانا.

من الأسباب التي دفعت بعملية الترجمة ما يلي : أن العرب الذين فتحوا الشرق والغرب وجدوا أن الأمم التي انتصروا عليها وفتحوا أراضيها أكثر منهم تحضرا ولذلك سيطر عليهم الشعور بوجوب التعرف على ما عند تلكالأمم من علوم ومعارف ، أيضا أن العرب حينما فتحوا مختلف الأقطار كانوا يحملون دينا فطريا يعتمد على

البساطة ويخاطب في الناس الفطرة السليمة ، ولكنهم وجدوا لدى أهل البلاد المفتوحة ديانات مفلسفة أو فلسفةمتدينة ، وعليه وجب ترجمة المنطق والفلسفة لاستخدامها في مواجهة أعداء الإسلام من الملاحدة والمشركين.

يضاف إلى ذلك شغف بعض الخلفاء إلى العلوم والمعارف خاصة الفلسفة ، وقد كان الناس على دين ملوكهم ويجتهدون في تحصيل ما يحبونه من المعارف العلمية والفلسفة ليحظوا بتقدير الخلفاء ومنحهم وهباتهم السخية، والملاحظ أن الترجمة عن اللغة اليونانية تناولت في معظمها الجوانب العلمية والفلسفية.

بعض المراجع:

- أحمد حامد المجالدي ، هايل خليفة الدهيسات : الحضارة العربية الإسلامية أسسها ومنجزاتها،ط1، كنوز المعرفة، الأردن، 2012.

- فاضل محمد الحسيني : آفاق الحضارة العربية الإسلامية، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2006.

- الربعي بن سلامة : الحضارة العربية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 2009.

- عاطف علبي، الحضارة العربية الإسلامية ودورها في تكوين الحضارة الأوروبية ، ط 1 ، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان ، 2009.

- سلامة صالح النعيمات ، وآخرون الحضارة العربية الاسلامية ، القاهرة مصر،2008.

- شايف عكاشة، الحضارة العربية الإسلامية بين التطور والتخلف ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1994.

- أحمد محمود الزناتي، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة عين شمسن زهران للنشر، مصر 2010.

- محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية ، موسوعة عالم المعرفة، 1988.